سلسلة المحاضرات الإسلامية

مناهج خمسة في الاستدلال على إمامة أهل البيت عليهم السلام

محاضرة أُلقيت في كاردف، وكلاسكو، ولندن، ومانشستر، سنة ١٤٢١ هـ

العلاّمة المحقق: السيّد سامي البدري

إمامة أهل البيت الاثني عشر عليهم السلام

أخطر مسألة في الفكر الإسلامي

تعتبر إمامة أهل البيت عليهم السلام أخطر وأعظم مسألة في الفكر الإسلامي على الإطلاق، وذلك لانقسام المسلمين جميعاً تبعاً لها إلى معسكرين كبيرين، منذ صدر الإسلام وإلى اليوم، وإلى ما شاء الله تعالى.

المعسكر الأوّل:

ويتمثّل بالشيعة: وهؤلاء يُثبتون لاثني عشر شخصاً من أهل بيت النبي الإمامة الإلهية، التي جعلها لنبيّه الكريم، ومن قبل جعلها لإبراهيم وموسى والمعصومين من بعدهما، مع تثبيت، أنّ الأئمة من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله هؤلاء ليسوا بأنبياء ولكنّهم مطهّرون معصومون، ويُلحقون تبعاً للنصوص بهؤلاء المعصومين الاثني عشر الصدّيقة فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وآله .

المعسكر الثاني:

ويتمثّل بالسنّة ويندرج ضمنهم الخوارج: وهؤلاء ينفون هذه الإمامة عن أهل البيت عليهم السلام كما ينفون أصل وجود معصومين بعد النبي.

مناهج خمسة وليس منهجاً واحداً

وقد يتصوّر البعض، أنَّ مثل هذه المسألة الخطيرة، لم يتوفر لها إلاّ الدليل الروائي الذي يتمثّل بالأحاديث النبويّة التي روتها كتب الحديث

السنيّة، وعلى الرغم من كفاية هذا الدليل بشكلٍ تام لإثبات المطلوب، غير أنّ حال المسألة أوسع من ذلك، إذ هناك خمسة أصعدة ومناهج من البحث لإثباتها [1]، وكلّ صعيد ومنهج منها ينهض بتحقيق مستوى من الإثبات خاص به.

مضافاً إلى أنّ هذه المناهج يعضد بعضاً، وفيما يلي هذه الأصعدة والمناهج، والتعريف بها بشكلٍ مختصر:

أوّلاً: القرآن الكريم

نريد بالمنهج القرآني في الاستدلال على إمامة أهل البيت عليهم السلام، هو اعتماد القرآن فقط كبداية لتشخيص أطروحة الإمامة الإلهيّة بعد النبي صلى الله عليه وآله، ومبرّرات الحاجة إليها.

أهلُ البيت ينبّهون على المنهج القرآني:

كان أهل البيت هم الذين أثاروا انتباه أصحابهم إلى هذا المنهج، فقد رُوي عن الصادق عليه السلام قولُه: (مَن لم يعرف أمرنا من القرآن لم يتنكّب الفتن)، وقوله: (لو قُرئ القرآن كما أُنزل لألفيتنا فيه مُسمَّيْن).

ولا يريد الإمام الصادق بحديثه ذاك، أن يقول إنّ أسماء الأئمة

---

(١) لم نُدرج الدليل العقلي، لإنّ موضوع البحث، هو إمامة عليّ والحسن والحسين والتسعة من ذريّة الحسين، وليس البحث عن ضرورة وجود حجّة في كلّ زمن، وهي مسألة يتكفّل العقل بإثباتها أساساً؛ مضافاً إلى النصوص.

كانت في القرآن، ثم أُسقطت منه، كما قد يتبادر إلى الذهن ذلك، بل أراد بقوله: (لوجدّتنا مسمَّيْن)، أي لوجدّتنا معرَّفين، وموصوفين بأوصافٍ تقود إلينا، وتنحصر بنا. والاسم هنا معناه الصفة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)﴾ الأعراف/١٨٠، فأسماء الله تعالى صفاته.

طبيعة المنهج القرآني:

المراد من قول الإمام الصادق عليه السلام: (لو قُرئ القرآن كما أُنزل)، هو التدبّر في القرآن بلحاظ ارتباط آياته بعضها ببعض، وهي الحقيقة التي يُشير إليها قوله تعالى:

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣)﴾ الزمر/٢٣

والمراد بقوله تعالى: ﴿متشابهاً﴾، أي كلّ ما في هذا القرآن، هو حقّ، والحقّانية تسري فيه بدرجةٍ واحدةٍ.

وموضع بحثنا، هو كلمة ﴿مثانيَ﴾، حيث وردت نعتاً وصفةً للقرآن، وقد وردت الكلمة أيضاً نعتاً لآيات القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧)﴾ الحجر/٨٧

ولا يسمى الشيء مثاني، إلاّ إذا كانت له مطاوي ومحاني ومعاطف ومنعَرَجات.

تقول: ثنى الشيء ثَنْياً: أي ردَّ بعضه على بعض، وقد تثنّى وانثنى، وأثناؤه ومثانيه: قِواه وطاقاته [1]، وأثناء واحدها ثني، ومَثناة ومِثناة عن ثعلب.

وأثناء الحيّة: مطاويها إذا تحوَّت، أي إذا انطوت. وثني الحيّة: انثناؤها، وهو أيضاً ما تعوّج منها، إذا تثنّت، والجمع أثناء.

ومثاني الوادي ومحانيه: معاطفه. والثِّني: واحد أثناء الشيء، أي تضاعيفه، تقول: أنفذت كذا ثِنْيَ كتابي أي في طيّه.

وثِنْي الناقة: ولدها، وكذلك المرأة. أقول سميّ ولد الناقة، أو ولد المرأة ثِني، لأنّه كان في أحنائهما وطيّاتهما.

وفي ضوء ذلك يتّضح، أنّ وصف الكتاب بالمثاني معناه، أنّ آياته لها

---

(١) القوّة: الخصلة الواحدة من قوى الحبل، وقيل: القوّة الطاقة الواحدة من طاقات الحبل أو الوتر، والجمع كالجمع قوى وقوى. وحبل قو ووتر قو كلاهما: مختلف القوى. وأقوى الحبل والوتر: جعل بعض قواه أغلظ من بعض. وفي حديث ابن الديلمي: ينقض الإسلام عروةً عروة، كما ينقض الحبل قوةً قوة. والمقوي: الذي يقوي وتره؛ وذلك إذا لم يجد غارته، فتراكبت قواه. ويقال: وتر مقوى. أبو عبيدة: يقال أقويت حبلك، وهو حبل مقوّى، وهو أن ترخي قوةً، وتغيّر قوة، فلا يلبث الحبل أن يتقطّع، ويقال: قوة وقوى، مثل صوة وصوى وهوة وهوى. وفي الحديث: يذهب الدين سنةً سنةً كما يذهب الحبل قوةً قوةً.

ارتباط بعضها ببعض، كارتباط محاني الأفعى ومعاطفها ومنعرجاتها بعضها ببعض، وكارتباط محاني الوادي ومنعطفاته ومنعرجاته بعضها ببعض.

ولم يترك القرآن قارئه حيران، لا يهتدي إلى هذه المنعرجات والمحاني والبطون، بل هداه إليها بواسطة ألفاظ الآية، أو مترادفاتها غالباً وأحياناً بواسطة عبارة أو جملة منها.

وهكذا يتّضح، أنّ المراد من حديث الإمام الصادق عليه السلام: (لو قُرئ القرآن كما أُنزل لألفيتنا فيه مسمَّيْن)، هو أنّ القرآن لو فُسِّر على أساس الأصول التي بُني عليها، بكون الآية لها محاني ومطاوي تقود إليها ألفاظها أو مرادفاتها؛ لوجد الباحثون وقرّاء القرآن، أهل البيت مشخّصين ومعرَّفين بصورة لا تقبل الشك والتردد؛ (من لم يعرف أمرنا من القرآن لم يتنكّب الفتن).

خصائص المنهج القرآني:

يتميّز المنهج القرآني في الاستدلال على إمامة أهل البيت عليهم السلام بكونه الأساس للمناهج الأخرى، والمنبّه عليها فهو:

ينبِّه إلى أنَّ خبر أهل البيت في الكتب السابقة، كما هو الحال في خبر بعثة النبي. وهذا هو المنهج الثاني.

وينبّه إلى أنَّ النبي يُعلن فضلهم ويبيّن عظيم منزلتهم عند الله تعالى. وهذا هو المنهج الثالث.

وينبّه إلى خصائص واقعهم التاريخي، من خلال الحديث عنهم بواسطة نُظرائهم من بني إسرائيل، و ما جرى عليهم من أمور خاصّة بهم، أو الإشارة إلى وقائع مستقبلية، مع تواريخ مضبوطة لا تنطبق إلاّ عليهم. وهذا هو المنهج الرابع.

وينبّه إلى أنّهم وارثون لعلم الكتاب الموحى إلى النبي صلى الله عليه وآله ، وبالتالي فالعلم المأثور عنهم يكتسب خصائص الكتاب نفسه، هذه الخصائص التي فَرضت، أن يُفسَّر الكتاب الإلهي بمصدرٍ غير بشري، وكذلك تَفرض، أن يفسَّر تراث أهل البيت عليهم السلام الذي يتميّزون به بأنهم ورثوا العلم وراثة خاصّة عن النبي صلى الله عليه وآله ، وهذا هو منهج الاستدلال بخصائص تراث أهل البيت. وهذا هو المنهج الخامس.

خلاصة ما ذكره القرآن عن الأئمّة عليهم السلام:

يُمكننا أن نُلخّص نتائج المنهج القرآني كما يلي:

١ - يذكر القرآن، أنّ الله تعالى طهّر أُناساً من أسرة النبي صلى الله عليه وآله

وجعلهم سابقين بالخيرات بإذنه، وجعلهم أئمّةَ هدىً، كما طهّر أُناساً من أُسر الأنبياء السابقين، وجعلهم أئمّةَ هدىً.

٢ - إنّهم مبشّر بهم منذ عهد إبراهيم إلى جنب التبشير بالنبي ﷺ .

٣ - إنّهم شفعاء دار البقاء.

٤ - إنّهم شهداء دار الفناء أي مفروضوا الطاعة والاقتداء.

٥ - إنّهم مكلّفون بحفظ الرسالة من الانقلاب على الأعقاب، الذي سيقع بعد النبي.

٦ - إنّ معرفة الشخص الأوّل، أو الوجبة الأولى منهم، كمعرفة شخص الصلاة والصيام موكول إلى النبي ﷺ .

٧ - إنّهم محسودون مستضعفون.

٨ - إنّ النصر النهائي لهم.

وهناك معلومات أكثر عنهم، من خلال قصص نُظرائهم من أئمّة الهدى في الأمم السابقة.

نماذج من الآيات التي تتحدّث عنهم:

من الآيات التي تتحدّث عن وارثين مصطفَّين، جعلهم الله أئمّةً، قوله تعالى:

(وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢)) فاطر/٣١-٣٢.

الكتاب في الآيتين الكريمتين: هو القرآن الكريم.

ووراثة الكتاب هنا يراد بها وراثة النص القرآني، مع بيانه وتفسيره لقوله تعالى: (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)) القيامة/١٨-١٩.

وقد أشار القرآن، إنّه آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم: (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاّ الظَّالِمُونَ (٤٩)) العنكبوت/٤٩.

وأهل العلم هؤلاء الوارثون للكتاب وبيانه، هم المشار إليهم في قوله تعالى: (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (٥٤)) النساء/٥٤، وآل إبراهيم في القرآن، يراد بهم المحسنون المخلَصون من ذريّة إسماعيل في عهد النبي مُحَمَّد ﷺ خاصّة.

قوله تعالى: (اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا): أي اجتبينا من عبادنا، وهم فئة خاصّة إذ ليس كلُّ مسلم هو مصطفى من الله.

فمنهم أي من عبادنا من هو ظالم لنفسه، ومنهم من هو مقتصدٌ، أي يطلب الاستقامة، ويسأل من يدلّه عليها، وكِلاهما ليس مؤهّلاً لأن يورّث العلم الكامل، ومنهم من هو سابقٌ بالخيرات بإذن الله، أي سبق غيره إلى العمل بالخير، فهو أوّل العاملين بالرسالة حين يعد العاملون،

وهذه الأوّلية توفيق إلهي خاص، وهذا الصنف هو المؤهّل، أن يكون وارثاً لخط النبوّة، ومقام الإمامة الإلهية: ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)﴾ البقرة/١٢٤.

ومن الآيات أيضاً قوله تعالى:

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)﴾ الحج/٧٨.

قوله تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾، أي هو اصطفاكم وليس كلُّ مسلمٍ مصطفى.

وقوله تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾، قرينة على أنّ المخاطَبين في الآية، ليس كلّ المسلمين، إذ ليس كلّ ذريّة إبراهيم قد أسلمت، ولا كلّ المسلمين من ذرية إبراهيم.

قوله: ﴿هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ﴾، أي إبراهيم كان قد طلبكم منّي حين دعا هو وإسماعيل، عند بناء البيت قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ... (١٢٨) رَبَّنَا

وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)) البقرة/١٢٧-١٢٩.

قوله: (مِنْ قَبْل): أي في الكتب الإلهية السابقة.

(وَفِي هَذَا): أي وفي هذا القرآن أنتم مذكورون بهذه الصفة.

وقوله: (لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)، أي لستم أنبياء، ومن هنا جعلناكم شهداء على الناس بواسطة الرسول نفسه، الذي بعثناه إليكم خاصّة؛ ليعلّمكم، ويورّثكم العلم، ويُعلن عظيم فضلكم: (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ).

ثمّ بعثنا النبي إلى الناس عامّة؛ ليطهّرهم ويعلّمهم: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤)) الجمعة/٢-٤.

والأميّون هم أهل مكة، وهم في ضلالٍ مبين، أي مشركون يعبدون الأصنام، وهؤلاء يتلو عليهم النبي القرآن؛ ليُزكّيهم من الشرك، ويُعلنوا عن إسلامهم العام؛ ليكونوا طاهرين طهارة الإسلام، ثم يكونوا مهيّئين؛ لتلقّي العلم عن النبي.

ومن أجل أن يوحي قوله، أنّ أهل مكّة كلّهم مشركون قال تعالى:

(وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ)، أي وآخرين من أهل مكّة لم يشاركوا قومهم في شركهم، وهم الفئة المسلمة بدعوة إبراهيم: عبد المطلب وأبو طالب والنبي وعلي وفاطمة بنت أسد.

ثانياً: الكتب المقدّسة المعتبرة عند اليهود والنصارى

إنّ الكتب الإلهية السابقة (التوراة، الإنجيل، والأسفار الملحقة بها) على الرغم ممّا أصابها من تحريف، توجد فيها نصوص كثيرة تتحدّث عن أهل البيت، كما تحدّثت عن النبي صلى الله عليه وآله . والقرآن الكريم هو أوّل من أثار هذا المنهج، وأثبته في مواضع كثيرة.

وقال تعالى: (وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧)) الشعراء/١٩٦-١٩٧.

قال تعالى: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ (١٥٧)) الأعراف/١٥٧.

وفي الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام قال: (يعني النبيّ والوصيّ والقائم) [1].

وأهم النتائج التي يقدّمها هذا المنهج هي: إنّ الكتب المقدّسة بنُسخها المعتمدة عند اليهود والمسيحيين المتداولة فعلاً تقدّم معلومات، وبشارات عن نبوّة مكّية تمتد باثني عشر إماماً إلهياً.

وقد جاء في بعض هذه النصوص اسم عليّ والمهدي عليهما السلام إلى جنب اسم النبي صلى الله عليه وآله ، كما

---

(١) الكافي ١/٤٢٩.

أشارت نصوص كثيرة إلى ظُلامة الحسين، وكيف أنّ الله تعالى جعل هذه الظلامة؛ سبباً لصلاح الأمّة، وحفظ الدين، وكيف أنّ الله تعالى جعل للحسين نسلاً صالحاً تطول أيامه؛ تكون الخاتمة الطيبة للمسيرة الدينية على الأرض على يده.

ومن أشهر هذه النصوص: الفقرة ٢٠ من الإصحاح ١٧ من سفر التكوين: (أمّا إسماعيل، فقد سمعت قولك فيه، ها أنا ذا أباركه وأُنمّيه وأُكثّره جدّاً جدّاً، ويلد اثني عشر رئيساً، وأجعله أمّةً عظيمةً).

وقد أجمع علماء المسلمين وعلماء اليهود الذين أسلموا، على أنّ هذا النصّ يبشّر بمحمّد ﷺ ، وأنّ عبارة (جدّاً جدّاً)، وهي ترجمة لعبارة (بمآد مآد) (بماد ماد) العبرية الواردة في النصّ العبري، كانت بالأصل تُشير إلى اسم محمّد ﷺ ، ثمّ حُرّفت إلى كلمةٍ متكافئةٍ من ناحية العدد [١] مع اسم محمّد وهي (بمآد مآد)؛ إذ كلاهما يساوي (٩٢).

وإذا ثبت ذلك وهو ثابت، كان الاثنا عشر بعدها ممّا يرتبط بمحمّد وليس بإسماعيل، وهو ما كان يفهمه علماء اليهود الذين أسلموا، حيث كانوا يختارون التشيّع على غيره من المذاهب؛ باعتباره مذهباً يقوم على الإيمان باثني عشر وصيّاً للنبي [٢].

---

(١) والهدف من ذلك: هو حصر المعرفة بالبشارة بِكَهنة اليهود.

(٢) قال ابن تيمية في معرض الردّ على الشيعة، وعقيدتهم بالاثني عشر المذكورين في حديث جابر بن سمرة عن النبي ﷺ : (الأئمّة من بعدي اثنا عشر كلّهم من قريش)، قال: (وهؤلاء المبشّر بهم في حديث جابر بن سمرة، وقُرّر أنّهم يكونون مفرّقين في الأمة، ولا تقوم الساعة حتى يوجَدوا، وقد غلط كثير ممّن تشرّف بالإسلام من اليهود، فظنّوا أنّهم الذين تدعوا إليهم فرقة الرافضة فاتّبعوهم)، البداية والنهاية لابن كثير ٢٥٠/٦. أنظر كتابنا شُبهات ورُدود، الحلقة الأولى، الفصل السادس. وبحثنا دعوة إبراهيم وإسماعيل، المنشور في مجلّة (ميقات الحج)، العدد الأوّل.

ومن أشهر النصوص أيضاً، الفقرات ١٩- ٢٢ من الإصحاح الأوّل من إنجيل يوحنّا:

(وَهَـذِهِ شَـهَادَةُ يُوحَنَّـا حِينَ أَرْسَـلَ الْيَهُـودُ مِـنْ أُورُشَـلِيمَ بَعْـضَ الْكَهَنَـةِ وَاللاَّوِيِّينَ يَسْـأَلُونَهُ: (مَـنْ أَنْتْ؟) ٢٠فَاعْتَرَفَ وَلَمْ يُنْكِرْ، بَلْ أَكَّدَ قَائِلاً: (لَسْتُ أَنَا الْمَسِيحَ). ٢١فَسَأَلُوهُ: (مَاذَا إِذَنْ؟ هَلْ أَنْتَ إِيلِيَّا؟) قَالَ: (لَسْتُ إِيَّاهُ!)؛ (أَوَ أَنْتَ النَّبِيُّ؟) فَأَجَابَ: (لاَ!) ٢٢فَقَالُوا: (فَمَنْ أَنْتَ، لِنَحْمِلَ الْجَوَابَ إِلَى الَّذِينَ أَرْسَلُونَا؟ ...فَعَادُوا يَسْأَلُونَهُ: (إِنْ لَمْ تَكُنْ أَنْتَ الْمَسِيحَ، وَلاَ إِيلِيَّا، وَلاَ النَّبِيَّ، فَلِمَاذَا تُعَمِّدُ إِذَنْ؟) ٢٦أَجَابَ: (أَنَا أُعَمِّدُ بِالْمَاءِ! وَلكِنَّ بَيْنَكُمْ مَنْ لاَ تَعْرِفُونَهُ، ٢٧وَهُوَ الآتِي بَعْدِي، وَأَنَا لاَ أَسْتَحِقُّ أَنْ أَحُلَّ رِبَاطَ حِذَائِهِ)).

إنّ النبي في النصّ: يُشير إلى النبيّ الأميّ الموعود.

وإيلِيَّا: هو عليٌّ وصيُّ النبي.

والمسيح: هو ماشيحا العبرية وتعني المهدي المنتظر، أو المخلِّص.

ولا تنافي بين كون عيسى بن مريم هو مسيح ومخلِّص أيضاً، إلاّ إنّه مسيح لبني إسرائيل خاصّة، وقد ورد في إنجيل متّى ٢٤، قول المسيح: (مَا أُرْسِلْتُ إِلاَّ إِلَى الْخِرَافِ الضالَّةِ، إِلَى بَيْتِ إِسْرَائِيلَ!).

ثالثاً: الحديث النبويّ الشريف المعتبر لدى أهل السنّة

إنّ الاستدلال بالحديث النبوي الشريف المعتبر لدى أهل السنة مسألة واضحة ومعروفة، وقد كتب فيها علماء الشيعة تراثاً ضخماً جدّاً.

يقدّم الحديث النبوي المعتبر عند أهل السنّة، رؤية واضحة عن أهل البيت خلاصتها: أنّهم عِدلُ الكتاب، وأنّ التمسّك بهما معاً يعصم من الضلالة، وأنّ ولايتهم ولاية النبي ﷺ، كما في حديث الثقلين وحديث الغدير.

وإنّه ﷺ عيَّن عددهم وهم اثنا عشر، وسمّى أوّلهم: وهو عليّ، ثمّ شبَّه ﷺ منزلة عليٍّ منه بمنزلة هارون من موسى، ثمّ سمّى النبي ﷺ الحسن والحسين وقال عنهم: إنّهم سبطان من الأسباط، يُشير إلى قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)﴾ البقرة/١٣٦. والأسباط هنا هم: يوسف والأئمّة من ذريّته.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩) وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ... (١٦٠)﴾ الأعراف/١٥٩-١٦٠. والأسباط هنا من آل هارون المشار إليهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨)﴾ البقرة/٢٤٨، وال هارون هم النقباء الاثني عشر المشار اليهم في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ المائدة/١٢.

وقد شبّه النبيُّ أوصياءه بالأئمّة من بني إسرائيل، كما في رواية مسروق عن ابن مسعود قال: (سأل رجل عبد الله بن مسعود قال له: يا أبا عبد الرحمان، هل سألتم رسول الله كم يملك هذه الأمّة من خليفة؟ فقال عبد الله: سألناه فقال: (اثنا عشر عدّة نُقباء بني إسرائيل))[1].

وفي رواية أخرى: (يكون بعدي من الخلفاء عدّة أصحاب موسى) [2].

---

(١) مسند أحمد ٣٩٨،٤٠٦/١. قال أحمد شاكر في هامش الحديث الأوّل: (إسناده صحيح). ومستدرك الحاكم ٥٠١/٤. وفتح الباري ٣٣٩/١٦. مجمع الزوائد ١٩٠/٥. كنز العمّال ٢٧/١٣.

(٢) البداية والنهاية (لابن كثير) ٢٤٨/٦. وكنز العمّال ٢٧/١٣. قال ابن كثير (وقد رُوي مثل هذا عن عبد الله بن عمر، وحذيفة، وابن عباس). أقول: وقد رُوي مثله الهيثمي في مجمع الزوائد عن الطبراني في الأوسط والكبير، والبزّار، عن أبي جُحيفة.

ويتبيّن من ذلك: أنّ حديث الاثني عشر عند السنّة، لا تنحصر روايته بالصحابي جابر بن سمرة، بل يرويه صحابة آخرون، ذكرت الكتب السنّية الميسرة فعلاً خمسة منهم.

لقد ظنّ علماء الحديث من أهل السنّة أنّ المراد بهؤلاء الاثني عشر: هم الحكّام الذين جاءوا بعد الرسول، واتّفقوا على تسمية الأربعة الأوائل منهم، وحاروا في تكملة العدد، فمنهم من عدّ: معاوية بن أبي سفيان، ويزيد بن معاوية، وعبد الملك بن مروان، والوليد بن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك، ثمّ يزيد بن عبد الملك، ثمّ هشام بن عبد الملك، وبين سليمان ويزيد عمر بن عبد العزيز، والثاني عشر هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك). وقد رجّح هذا القول ابن حجر.

ومنهم من قال: إنّ هؤلاء الاثني عشر مفرّقين في الأمّة إلى آخر الدنيا. وهذا التفسير بعيد عن الصحّة تماماً؛ وذلك لإنّ تشبيه النبي (صلّى الله عليه وآله) لهؤلاء الاثني عشر بأصحاب موسى، ونُقباء بني إسرائيل يفيد أنّهم من سِنخهم.

وفي رواية أخرى: (كلُّهم تجتمع عليه الأمّة) [1].

رابعاً: السيرة التاريخية للأئمّة الإثني عشر عليهم السلام

تاريخ الأئمّة الاثني عشر بعضه مبسوط في كتب التاريخ العامّة، من قبيل تاريخ عليٍّ والحسن والحسين وذريّة الحسين إلى ولده الحسن العسكري عليه السلام.

وبعض هذا التاريخ ينفرد به الشيعة كليّاً، كقولهم: إنّ الحسن العسكري عليه السلام له ولد هو محمّد عليه السلام وهو المهدي الموعود، وإنّه غاب غيبتين: صغرى كان له فيها نوّاب وسفراء توسّطوا بينه وبين شيعته، وغيبةٌ كبرى انقطعت فيها أخباره. وإنّه سيُظهره الله تعالى في آخر الزمان؛ ليملأ الأرض قِسطاً وعدلاً.

والبعض الآخر من الحقائق التاريخية التي يذكرها الشيعة عن أئمّتهم، نجد لها ذكراً ما في المصادر السنّية، من قبيل ما ذكره الشيعة في كتبهم عن الإمام الباقر والصادق عليهما السلام، أنّهم كان عندهم كتب عليٍّ عليه السلام، التي كتب فيها كلّ السنّة النبوية، وبيان القرآن بإملاء النبي صلى الله عليه وآله، جاءتهم عن

---

(١) سنن أبي داود ٢ /٤٢٣.

طريق آبائهم، ثمّ صارت من بعدهم إرثاً لأبنائهم: الكاظم عليه السلام، ثمّ الرضا عليه السلام.

وأخبار هذا التراث العلمي المكتوب مفصّلة في كتب الشيعة، التي تذكر أنّها صارت إلى المهدي، الذي سوف يخرجه في جملة ما يخرجه من الوثائق الإلهية يومذاك.

ومن قبيل دعواهم الإمامة الإلهية، وأنّ القرآن أشار إليهم، وجملة من أحاديث عليٍّ عليه السلام، وكلماته في نهج البلاغة والدرّ المنثور تشير إلى ذلك. أمّا دعوى بقيّة الأئمّة، فينفرد الشيعة برواية ذلك عنهم عليهم السلام.

إنّ السيرة التاريخية للأئمّة الاثني عشر، تُفردهم بجهدٍ خاص بذلوه من أجل سنّة النبي على مستوى: النشر، والحفظ، والتدوين، والتطبيق. مضافاً إلى ذلك، فإنّ سيرتهم التاريخية لهؤلاء الاثني عشر تتميّز بخصائص تجعل منهم المصداق الوحيد لأهل البيت المذكورين في القرآن، الذين وصفهم: بأنّهم وارثون لعلم الكتاب وأنّهم مكلّفون بحفظ الرسالة، وغير ذلك من الصفات التي شخّصها لهم القرآن، وهكذا الصفات التي شخّصها لهم النبي بقوله: إنّهم عدل الكتاب، وإنّ التمسّك بهما معاً يعصم من الضلالة.

فمن هذه الخصائص:

١ - حالة تبعيّة عليّ للنبي، وتقيّده الحرفي بأوامره ونواهيه.

٢ - الحالة الأسباطية المنتسبة إلى الرسول من جهة فاطمة عليها السلام، وإلى عليٍّ من جهة الولد وهم أحد عشر: الحسن والحسين وتسعة من ذريّة

الحسين.

٣ - دعوى وراثة التراث العلمي النبوي المكتوب.

٤ - وحدة السيرة العملية، والخط الفكري والفقهي، فاللاحق منهم يصدّق السابق منهم، ويواصل السَيْر على منهاجه.

٥ - الحرص الخاص على سنّة النبي، نشراً وتدويناً وتطبيقاً.

والخلاصة أنّ المنهج التاريخي يُثبت ثلاثة أمور أساسية:

الأوّل: إنّ الأئمّة الإثني عشر كانوا يدَّعون مقام الإمامة الإلهية بعد الرسول، وإنَّ الذي يأخذ عنهم ويواليهم يُقبل منه عمله في الآخرة و ينجو، وإنَّ الذي لا يأخذ عنهم لا يقبل منه في الآخرة ويهلك.

الثاني: إنّ المواصفات التي طرحها القرآن حول الشهداء على الناس بعد النبي، تنطبق عليهم خاصّة دون غيرهم.

الثالث: إنّ الأئمّة التسعة من ذرية الحسين، هم امتداد المطهّرين من أهل البيت المذكورين في حديث الكساء، وهم تكملة الاثني عشر المذكورين في حديث النبي: (الأئمّة بعدي اثنا عشر)، والأئمّة الاثنا عشر هم الذين ينطبق عليهم حديث الثقلين دون غيرهم من ذريّة علي عليه السلام من فاطمة عليها السلام.

خامساً: التراث الفقهي والفكري للأئمّة الاثني عشر عليهم السلام

خلَّف أهل البيت تاريخيّاً تراثاً رواه عنهم أصحابهم، وحفلت به

المصادر الشيعيّة، وروت بعضه المصادر السنّية.

ومَن يُنعم النظر في هذا التراث بشكلٍ عام يلمح فيه خصائص معيّنة، هي عين الخصائص التي يتميّز بها المضمون القرآني أو حديث النبي ﷺ :

١ - كالإخبار بالمغيَّبات.

٢ - الانسجام مع حقائق العلوم التجريبية والمكتشفات الحديثة.

٣ - الانسجام التام مع القرآن، بحيث يُشكّل معه وحدة فكرية ونظرية واحدة.

هذا مع الاستقلال الفكري التام عن علماء العصر.

وكما يعتمد علماء المسلمين هذه الخصائص؛ لإثبات أنّ القرآن وحيٌ، وأنّ الحديث النبوي وحيٌ كذلك.

تصلح هذه الخصائص لتراث أهل البيت برواية الشيعة في تصديق دعوى الشيعة، بأنّ الذي ينفردون به من روايةٍ عن أهل البيت، إنّما هو من مشكاة النبوّة نفسها، وأنّه ممّا كتبه عليٌّ عن النبي، وتوارثه أهل البيت عنه بأمره وبوصيّةٍ منه ﷺ .

نماذج من إخبارهم بالمغيّبات:

قال ابن أبي الحديد في شرح قول عليّ عليه السلام :

(فوالذي نفسي بيده لا تسألونني عن شيءٍ فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فئةٍ تهدي مائة وتضل مائة، إلاّ أنبأتكم بناعقها،

وقائدها، وسائقها، ومناخ ركابها، ومحطّ رحالها، ومن يُقتل من أهلها قتلاً، ومن يموت منهم موتاً).

قال ابن أبي الحديد: واعلم أنّه عليه السلام قد أقسم في هذا الفصل بالله الذى نفسه بيده، أنّهم لا يسألونه عن أمرٍ يحدث بينهم وبين القيامة إلاّ أخبرهم به، وأنّه ما صحّ من طائفة من الناس يهتدي بها مائه وتضلُّ بها مائة، إلاّ وهو مُخبر لهم - إنْ سألوه - برعاتها، وقائدها، وسائقها، ومواضع نزول ركابها وخيولها، ومن يُقتل منها قتلاً، ومن يموت منها موتاً.

وهذه الدعوى ليست منه عليه السلام ادّعاءَ الربوبية، ولا ادّعاءَ النبوّة، ولكنّه كان يقول: إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله أخبره بذلك.

ولقد امتحنّا إخباره، فوجدناه موافقاً؛ فاستدللنا بذلك على صدق الدعوى المذكورة:

كإخباره عن الضربة التي يُضرب بها في رأسه فتخضب لحيته.

وإخباره عن قَتْل الحسين ابنه عليهما السلام، وما قاله في كربلاء حيث مرّ بها ....

وما أخبر به من أمر الخوارج بالنهروان.

ما قدّمه إلى أصحابه من إخباره بقتل من يُقتل منهم، وصلب من يُصلب.

إخباره بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين.

وإخباره بعدّة الجيش الوارد إليه من الكوفة، لما شخص عليه السلام إلى البصرة لحرب أهلها.

وإخباره عن عبد الله بن الزبير، وقوله فيه: (خبّ ضبّ، يروم أمراً ولا يُدركه، ينصب حبالة الدين لاصطياد الدنيا، وهو بعدُ مصلوبُ قريش).

وكإخباره عن هلاك البصرة، بالغرق وهلاكها تارةً أخرى بالزنج، وهو الذي صحّفه قوم فقالوا: بالريح.

وكإخباره عن ظهور الرايات السود من خراسان، وتنصيصه على قوم من أهلها يُعرفون ببني رزيق - بتقديم المهملة - وهم آل مصعب، الذين منهم طاهر بن الحسين وولده، وإسحاق بن إبراهيم، وكانوا هم وسلفهم دعاة الدولة العباسية.

وكإخباره عن الأئمّة الذين ظهروا من ولده بطبرستان، كالناصر والداعي وغيرهما، في قوله عليه السلام: (وإنّ لآل محمّد بالطالقان لكنزاً سيُظهره الله إذا شاء، دعاؤه حقّ يقوم بإذن الله فيدعو إلى دين الله).

وكأخباره عن مقتل النفس الزكية بالمدينة، وقوله: (إنّه يُقتل عند أحجار الزيت).

وكقوله عن أخيه إبراهيم المقتول بباب حمزة: (يُقتل بعد أن يظهر، ويُقهر بعد أن يَقهر)، وقوله فيه أيضاً: (يأتيه سهم غرب

- أى لا يُدرى راميْه - يكون فيه منيّته فيا بؤساً للرامي! شُلّت يده، ووهن عضده).

وكإخباره عن بني بويه، وقوله فيهم: (ويخرج من ديلمان بنو الصيّاد)، إشارةً إليهم. وكان أبوهم صيّاد السمك يصيد منه بيده ما يتقوّت هو وعياله بثمنه، فأخرج الله تعالى من ولده لصلبه ملوكاً ثلاثةً، ونشر ذريّتهم حتى ضُربت الأمثال بملكهم.

وكقوله عليه السلام فيهم: (ثمّ يستشري أمرهم حتى يملكوا الزوراء، ويخلعوا الخلفاء). فقال له قائل: فكم مدّتهم يا أمير المؤمنين؟ فقال: (مائة أو تزيد قليلاً). وكقوله فيهم: (المترف ابن الأجذم، يقتله ابن عمّه على دجلة)، وهو إشارة إلى عزّ الدولة بختيار بن معزّ الدولة أبي الحسين، وكان معزّ الدولة أقطع اليد، قُطعت يده للنكوص في الحرب، وكان ابنه عزّ الدولة بختيار مترفاً، صاحب لهوٍ وشُرب، وقتَله عضد الدولة فناخسرو ابن عمّه بقصرٍ على دجلة في الحرب، وسلبه ملكه، فأمّا خلعهم للخلفاء فإن معزّ الدولة خلع المستكفي، ورتّب عوضه المطيع، وبهاء الدولة أبا نصر بن عضد الدولة، خلع الطائع ورتّب عوضه القادر، وكانت مدّة ملكهم كمّا أخبر به عليه السلام.

وكإخباره عليه السلام لعبد الله بن العبّاس (رحمه الله تعالى) عن انتقال الأمر إلى أولاده، فإنّ علي بن عبد الله لما وُلد، أخرجه أبوه عبد الله إلى علي عليه السلام، فأخذه وتفل في فيه، وحنّكه بتمرةٍ قد لاكها،

ودفعه إليه، وقال: خذ إليك أبا الأملاك، هكذا الرواية الصحيحة، وهى التى ذكرها أبو العبّاس المبرّد في (الكتاب الكامل وليست الرواية التي يذكر فيها العدد، بصحيحة ولا منقولة من كتاب معتمد عليه).

وكم له من الإخبار عن الغيوب الجارية هذا المجرى، ممّا لو أردنا استقصاءه، لكرّسنا له كراريس كثيرة، وكُتب السِيَر تشتمل عليها مشروحة.

نماذج من انسجام فتاواهم وروايتهم مع العلم الحديث:

- الروايات المأثورة عنهم في الإشارة إلى (ظاهرة الموت الظاهري) (death clinical phaenomina)، وحكم الميّت بالسكتة والصعقة، ووجوب تأخير تجهيزهما، وانسجامها مع قرارات مؤتمر الطب العدلي منتصف القرن العشرين في الموضوع نفسه [١].

- روايات الإشارة إلى الباقلاّء،وكونها تولّد الدم، حيث رُوي عن الإمام الصادق و الكاظم والرضا عليهم السلام ، أنّ أكل الباقلاّء؛ يُمخّخ الساقين؛ ويولّد الدم الطري، وقد أثبت الطب الحديث، أنّ مركز تكوين الدم هو مخّ العظام [٢].

- روايات تشخيص الجوديّ الوارد ذكره في القرآن في قوله تعالى:

---

(١) فصّلنا ذلك في مقال كتبناه، نُشر في مجلّة أخبار الكُلية الطبية، في بغداد، سنة ١٩٦٩م.

(٢) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، آل البيت، ج ٢٥، ص ١٢٩، عن الكافي للكليني. أوّل من انتبه إلى ذلك فيما اعلم هو الدكتور سعد سلمان تاج الدين.

(وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ) هود/٤٤، بـ (فرات الكوفة)، وانسجامه مع ما وُجد في الآثار المسمارية، التي بقيت مطمورةً تحت التراب آلاف السنين، قبل الصادق وبعده، حتّى كُشفت في القرن العشرين والقرن التاسع عشر[١].

---

(١) بحثْنا هذه الرواية، ونظائرها في نشرة القرآن وعلم الآثار، الكرّاسة الأولى.

الفهرس

إمامة أهل البيت الاثني عشر عليهم السلام ٥
أخطر مسألة في الفكر الإسلامي..... ٥
المعسكر الأوّل:..... ٥
المعسكر الثاني:..... ٥
مناهج خمسة وليس منهجاً واحداً ٥
أوّلاً: القرآن الكريم ٦
ثانياً: الكتب المقدّسة المعتبرة عند اليهود والنصارى..... ١٥
ثالثاً: الحديث النبويّ الشريف المعتبر لدى أهل السنّة..... ١٨
رابعاً: السيرة التاريخية للأئمّة الإثني عشر عليهم السلام ٢٠
خامساً: التراث الفقهي والفكري للأئمّة الاثني عشر عليهم السلام ٢٢